الدرس السادس

صدق في الانتماء .. وجرأةٌ في الإعلان

بكل صراحة ووضوح، دون مواراة أو مداراة، أو خوف أو ضعف يعلن على الملأ الغاضب الساخط حقيقة انتمائه لهذا الدين الذي جاء به هولاء المرسلون..

﴿إنّي آمنت بربكم فاسمعون﴾،

فلم تعقد لسانه رهبةُ الموقف.. وطغيان الباطل وسلطانه.. ولم يتلجلج لحظة في هذا الإعلان.. بل في هذه اللحظة.. لحظة الاستعلاء والايمان.. تصاغرت في عينيه فلول الباطل وجموعه.. وأسلحتهم وصراخهم.. فعلا وسما.. فإذا به ينظر إليهم من علٍ.. وإذا به يراهم دون ما وقر في قلبه من خوف وسلطان الله- بكثير كثير. فلا يملك إلا أن يصيح

بهم.. ﴿إني آمنت بربكم فاسمعون﴾ تجاهل حرابهم الموجهة إلى نحره.. نسي سيوفهم المسلطة على عنقه.. بل لم يكن لشيء من هذا في ذاته العامرة بالإيمان وحب الرحمن وجود أو مكان.. فمن عظمت مكانة الله في قلبه صغر وهان ما دونه!!

ولذا فإننا نقول: إن أول الحقائق التي ينبغي أن يدركها المسلم، أنّى كان موقعه في هذه الحياة الدنيا، حاكماً كان أو محكوماً، رئيساً أو مرؤوساً، وزيراً أو غفيراً، كبيراً أو صغيراً، غنياً أو فقيراً، رجلاً أو امرأة.. هي تلك الحقيقة التي انطق الله بها عملاق الاسلام عمر رضى الله عنه حين قال: «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمهما ابتغينا العزة بغيره أذلنا الله..»

فأول علامات عزة المسلم، وعلوّ شأنه، هي اعتزازه بانتسابه للإسلام، وبعبوديته للّه ربّ العالمين، يشمخ بهذا عنقه، وتعلو به بين العالمين هامته.. فإن كان اليهودي يعتز بيهوديته.. والنصراني بنصرانيته.. والشيوعي بشيوعيته.. وعابد النار بناره.. وعابد البقر ببقرته.. وكل صاحب مبدأ مهما صغر شأنه وهانت قميته في نظر الآخرين يعتز هو بمبدئه!!

أفلا يكون بعد هذا من أوجب الواجبات أن يعتز المسلم بعبوديته للّه رب العالمين.. لا لنار أو صليب أو بقرة.. بل للّه ربّ العالمين القائل في محكم التنزيل: ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ والقائل: ﴿إن العزّة لله جميعاً﴾ فمن أراد العزة في الدنيا والآخرة فما عليه إلاّ أن يطلبها ممّن يملكها!!

وإن الاعتزاز علامة لصدق الانتماء، فمن انتمى لهذا الدين بصدق وإخلاص لم يتوان لحظة من اللحظات وفي أيّ مقام من المقامات من أن يجهر معتزاً بهذا الانتماء، داعياً إليه، ذائداً عن حياضه، فمن هنا قال الله تبارك وتعالى في مدح هؤلاء والثناء عليهم ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى اللّه وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين﴾ فصلت٣٣، وإذا أعدت النظر في الآية تعلم أن من مستلزمات الدعوة إلى الله تعالى والعمل الصالح الاعتزاز والفخر بالانتساب والانتماء للمسلمين.. فليس بداعية من لم يعتز على رؤوس الأشهاد بانتمائه لدين الله تبارك وتعالي.. لأن صدق الانتماء يعني صدق البذل والثبات والتضحية والعطاء.. ولن يدعو إلى الله أو يعمل صالحاً من توارى عن الانظار خوف أن يُعرفَ انتماؤه.. أو تكشف هويته الإسلامية.. فمن أولئك الذين

يتوارون حياءً وخجلاً حتى لا تعرف حقيقة انتمائهم أو تكشف هويتهم أتيت الأمّة، ومن جانبهم هزمت.. إن أمثال هؤلاء هم السرطان الذي يفتك في الأمة.. فيقطع أوصالها، ويشتت جمعها.. ويفرق أمرها.. ويفسد أخلاقها.. ويهوّن على عدوها شأنها.. فإن رمنا عزة وقوة ووحدة للأمة، فلا بد أن يستأصل أمثال هؤلاء من جسمها!!

وما أحوجنا اليوم لدعاة يقتاتون الجرأة والعزة.. كي يعيدوا فينا سيرة الأولين السابقين.. الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه.. فلم تأخذهم في الله لومة لائم.. أو يقعدهم عن الدعوة إلى الله ظلم ظالم أو بطش حاكم!!

إن موقف هذا الداعية الرباني، ومقولته هذه، تذكرنا بذلك الموقف العظيم الذي سطره السحرة فور دخول الإيمان قلوبهم: ﴿وألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون﴾ إعلان دون خوف من سلطان فرعون الطاغية، الذي كانوا قبل لحظات يرجون عطاءه ﴿وجاء السحرة فرعون قالوا إنّ لنا لأجراً[1] إن كنّا نحن الغالبين.

---

(١) وهذا يذكرنا بالدرس السابق(الأجر) فطلب الأجر يكون سبباً في انحراف الانسان أو هدايته.

قال نعم وإنكم لمن المقربين﴾، ويصعق فرعون الطاغية من هذا الموقف الانقلابي الرهيب الذي ما توقع حدوثه حتى في المنام والاحلام.. فيصيح بهم ﴿قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم إنَّ هذا لمكرٌ مكرتموه في المدينة لتخرجوا منها أهلها فسوف تعلمون﴾ بدأ التهديد والوعيد، حتى لا تنتقل عدوى الإيمان للجماهير المحتشدة، التي تشهد الموقف وترقبه.. ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين﴾ وبهدوء المؤمن وثباته وثقته بالله تبارك وتعالى.. يردون عليه بجرأة وشجاعة.. ﴿قالوا إنا إلى ربنا منقلبون، وما تنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لّما جاءتنا ربَّنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾، الأعراف ١٢٠-١٢٦، ﴿قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البيِّنات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقض هذه الحياة الدنيا. إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى﴾، طه٧٢، ٧٣.

ما أعظم الداعية إلى الله تعالى حين يتسلح..

بسلاح.. (ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين)

بسلاح.. (إنا إلى ربنا منقلبون)

بسلاح.. (لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات).

بسلاح.. (فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا).
بسلاح.. (والله خير وأبقى).

ما أعظم الداعيه حين يتسلح بهذا كله !! ما أعظمه ثباتاً في الملمات.. وصبراً في النائبات.. وإقداماً وتضحية في الميادين والساحات.. وصدقاً وإخلاصاً في الولاء والانتماء !!

ما أشد حاجتنا لداعية كهذا!! داعية لا يعرف الخوف بعد الإيمان.. ولا التراجع بعد البيعة.. ولا العجز بعد العهد والميثاق.. ولا النكوص بعد الإقدام!!

إنه موقف يذكرنا بموقف ذلك الشعب الذي أعلن إيمانه.. في لحظة تحد بين الكفر والإيمان، الكفر الذي يمثله طاغية وجنود وسلطان!! والإيمان الذي يمثله غلام ضحى بنفسه كي يبلغ دعوة الله إلى الحشود المجتمعة.. وقد بلغت رسالته لحظة ارتقائه إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند عليك مقتدر.. فهتف الناس بملء قلوبهم وأفواههم..

آمنا برب الغلام
آمنا برب الغلام
آمنا برب الغلام

وفي لحظة إيمانهم وإعلانهم هذه.. شُقّت الأرض بأفواه السكك وحفرت الأخاديد.. وأضرمت فيها النيران..

فتطاير شررها، وعانقت ألسنة لهبها عنان السماء، وجيء بهم واحداً بعد واحد.. يخيّرون بين ترك الإيمان أو القذف في هذه الأخاديد!!

لكن. هيهات أن ينال كفر من إيمان بعد ثبوته.. أو يهزم باطل حقاً تمكن في قلوب اتباعه!! هيهات.. فلا تراجع بعد البيعة.. ولا عجز بعد العهد والميثاق.. ولا خوف بعد الإيمان.. ولا نكوص بعد الإقدام.. فيختارون جميعاً:

﴿والله خير وأبقى﴾

﴿إنا إلى ربنا منقلبون﴾

﴿ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين﴾

ويمضي هذا الشعب المؤمن في موكب مهيب عظيم.. تحفه ملائكة الرحمن..

إلى العزيز الحميد الذي له الملك وهو على كل شيء شهيد.. ﴿قتل اصحاب الاخدود. النار ذات الوقود. إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود. وما نقموا منهم إلا أنْ يؤمنوا بالله العزيز الحميد. الذي له ملك السماوات والأرض والله على كل شيء شـــهيد﴾ البروج ٤-٩.

وهنا أود أن أثبت هذا الموقف للإمام الشهيد حسن البناء رحمه الله زيادة في بيان أثر صدق الانتماء على نفسية الداعية، وقوة صدوعه وجرأته، وقوة يقينه وطمأنينة قلبه، وصدق لهجته وبيانه، يقول رحمه الله: «وفي صباح يوم من الأيام، وأنا في طريقي إلى الفصل لإلقاء الدرس الأول أو الثاني، رأيت ناظر المدرسة.... على باب حجرته ينظر إليّ نظرات فيها غرابة، فدلفت إليه وقلت: السلام عليكم ورحمة الله صباح الخير يا حضرة الناظر، فابتسم وقال: وعليكم السلام صباح الخير، في لهجة فهمت أنّ وراءها شيئاً، فقلت: خيراً إن شاء الله، فقال: خيرخير، فقلت: (إيه الحكاية لازم في حاجة). فقال: حاجة!!.... محكمة الجنايات يا أستاذ حسن... محكمة الجنايات يا حبيبي. فقلت: جميل، لماذا؟! فقال: عريضة من رئيس الوزراء إلى وزير المعارف تقول إنك شيوعي ضد النظام وضد الملك وضد الدنيا كلها. فقلت: (بس كده) الحمد لله رب العالمين، والله يابك إذا كنّا برءاء فاسمع قول الله تعالى: ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا إنّ الله لا يحب كل خوان كفور﴾، وإذا كنا نخادع الناس بهذا الجهاد في سبيله وهذه الدعوة إلى دينه فإنّ محكمة الجنايات وجهنم قليل على الذين يخدعون الناس عن

الدنيا بلباس الدين، فلا تهتم ودعها لله وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون أقسم لك أنه لن يكون إلا الخير»[1]

وعلى هذا فالجرأة وصدق الانتماء حقيقتان متلازمتان، بل إنّ الجرأة ثمرة يانعة لا يقطفها إلا صادق الانتماء، فمن صدق انتماؤه زادت ونمت جرأته، ومن شاب انتماءه شائب، واعتراه خلل فقد جرأته، بل فقد رجولته في مواطن الرجولة والصدق والوفاء... فضعيف الانتماء سرعان ما تنهار عزائمه.. وتخور قواه.. ويبدو ضعفه وهزاله في مواطن البلاء؛ الترغيب والترهيب منها على حد سواء.. وما أكثر الذين سقطوا!! والذين ما زالوا يتساقطون في حظيرة الشيطان!!

ولن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر أو يدعو إلى خير إلا من صدق انتماؤه لأمة الخير التي قال فيها رب العزة جلّ جلاله:

﴿كنتم خيرا أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾

---

(١) مذكرات الدعوة والداعية.

والتميز وعدم التشبه بالكافرين الذي أمر به الإسلام هو مظهر من مظاهر صدق الانتماء لهذا الدين.. وهو بالتالي علامة جرأة يمتاز بها الداعية.. والتميز بمظاهره المختلفة وجوانبه المتعددة بحاجة في تطبيقه والأخذ به إلى القوة والجرأة.. فكم هم الذين منعمهم حياؤهم وترددهم من إعفاء اللحية مثلاً، هذه السنة التي أمرنا بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، خوفاً من أن يغمزه أهله أو اصدقاؤه أو الناس في محيطه الذي يعيش فيه!! ولو صدق هذا في انتمائه لملك الجرأة العظيمة، والحجة القوية التي تلقم كل ذي فم مستهزئٍ حجراً يغلقه ويسكته!! وقس على ذلك غيره.. من إلزام أهله اللباس الشرعي.. أو الصدوع في الحق في مجالس الظلمة.. أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجالس اللهو والعبث.